

العمران والدين: قراءة في مدونات الأخلاق الإسلامية

■ أحمد محمد سالم

- 1 -

1/1 - مما لا شك فيه أن الرؤية السائدة في ثقافتنا العربية الإسلامية أن ابن خلدون (732-808هـ) هو مؤسس علم العمران، والمنظر الحقيقي له في التراث الثقافي العالمي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا: ألم يكن ابن خلدون مسبقاً في الحديث عن (علم العمران)، وعن دور الدين في العمران البشري، حيث انتشر تناول العمران البشري في كتب (الأخلاق الإسلامية)، و(السياسة المدنية)، ومع ذلك يسعى ابن خلدون إلى بيان تمايز ما تناوله في تأسيسه (لعلم العمران) عن المجالات الأخرى سألفة الذكر، فيميّز ابن خلدون بين علم العمران وبين الأخلاق والسياسة المدنية؛ وذلك لأن «علم السياسة المدنية يهدف إلى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة؛ ليحصل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، وهذا شيء مخالف تماماً لما يهدف إليه علم العمران. فإن السياسة المدنية تهدف إلى بيان ما ينبغي أن يكون، في حين أن علم العمران،

■ أستاذ الفلسفة الإسلامية والفكر العربي بكلية الآداب - جامعة طنطا.

يدرس ما هو كائن¹. وهذا التمييز ينطبق على مجمل كتب الأخلاق الفلسفية والسياسة المدنية عند الفارابي (339هـ) وأبي الحسن العامري (381هـ) وابن مسكويه (421هـ) وغيرهم.

ومن ناحية أخرى يبرز طه حسين في أطروحته عن ابن خلدون أنه كان مسبقاً في تناوله للعمران من خلال تناول الفلاسفة المسلمين لأراء أفلاطون وأرسطو، كما أن وزراء العباسيين في القرن الثالث كانوا جميعاً من الفرس، ونقلوا تقاليدهم وعاداتهم إلى البلاط، وعزّب بعض الفُرس الأمثال والحكم الفارسية مثل رسائل ابن المقفع (757م)، وكتاب «التاج»، وكتاب «أخلاق الملوك»، وأنه لم يقتصر انتشار تلك السياسة الفارسية على المشرق؛ بل اخترقت كل العالم الإسلامي حتى إسبانيا²، ومن ثم رأى طه حسين أن ابن خلدون لم يستخرج سياسته الاجتماعية من العدم، ولم تكن قد أوحتها إليه عبقرية خارقة.

وعلى الرغم من اعتراف ابن خلدون أن كتاب (سراج الملوك) لـ «أبي بكر الطرطوشي» (520هـ) هو أقرب الكتب إلى مقدمته - حيث يحتوي على أبواب قريبة من أبواب المقدمة، مثل كلام الطرطوشي عن مزايا الحكم الصالح، والقواعد التي يجب أن يراعيها الحكام في تدبير شؤون رعاياهم، وعرض للمراتب السلطانية والوظائف الحكومية، ومالية الدولة وجنودها، وتدبير الحكم - على الرغم من ذلك فإن ابن خلدون يسلب الطرطوشي إسهامه، ويقول بأنه: «لم يصادف فيه الرمية، ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، وإنما يبوّب الباب للمسألة، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس، وحكماء الهند، وغيرهم من أكابر الخليفة، ولا يكشف

1- محمد عابد الجابري، العصبية والدولة... معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 106.

2- طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبد الله عنان، دار الكتب المصرية، ط 2، 2006، ص 54-55.

عن التحقيق قناعه، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه فلا تحقق قصده، ولا استوفى مسائلة¹. ونحن نعتقد بأن رؤية ابن خلدون بالنسبة لكتاب «سراج الملوك» بأنه يحتوي على الكثير من الآراء والأفكار والتدابير حول العمران، تنطبق أيضاً على كل كتب مرايا الأمراء أو «نصائح الملوك» أو «الأداب السلطانية»، في أنها حملت بداخلها الحديث بشكل جزئي ومتناثر عن العمران، وتديير الدولة، وصناعة الملك؛ ولكنها في المجمل الأعم لم تؤسس لنظرية في العمران كما فعل ابن خلدون؛ لأنه اتخذ لنفسه منهجاً آخر يستهدف دراسة الظواهر كما هي، ويعتمد على النتائج التي يقررها البرهان وليس على الإقناع الخطابي².

اعترف ابن خلدون أن كتاب (سراج الملوك) لـ «أبي بكر الطرطوشي» (520هـ) هو أقرب الكتب إلى مقدمته - حيث يحتوي على أبواب قريبة من أبواب المقدمة.

وقد نفسر تناول الفلاسفة المسلمين لمسألة العمران بشكل جزئي من خلال تناولهم لمسألة الأخلاق، وبعدهم عن التنظير الكامل لمسألة العمران مثلما فعل ابن خلدون في تفسير ابن مسكويه «بأن الحكماء إنما تركوا النظر في عمارة الدنيا؛ لأنها عائدة بعمارة الأبدان، ولما اطلعوا على شرف النفس على البدن، ورأوا لها عالماً آخر، وجمالاً يليق بذلك العالم، وصناعات وعلومًا ومسالك رُكوبها أشق وأعسر من الركوب في مخاطرات الدنيا، ولزوم محجتها، والدؤوب فيها بالنظر والعمل، آثروا التبليغ... ثم اشتغلوا وشغلوا بالأمر الأعلى الأفضل»³.

- 1- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة 2006، ج 1، ص 355.
- 2- الجابري، المرجع السابق، ص 106 - 107.
- 3- ابن مسكويه: التوحيدي، الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين، السيد أحمد صقر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2009، ص 238.

2/1 - وفي ضوء تلك المقدمة الوافية نتساءل: ما العمران؟ وما الدين؟ وما حدود أثر الدين في بناء العمران؟ وكيف تناولت كتب الأخلاق الإسلامية في مدوناتها المختلفة مسألة العمران ودور الدين في صناعته؟ وكيف ارتبط تناول العمران في هذه المدونات بتناول مسألة الدولة، والمُلك، وصناعة المَلِك أو الرئيس. تلك الأسئلة علينا أن نجيب عنها من خلال مدونات الأخلاق الفلسفية عند الفارابي والعامري وابن مسكويه، ثم تناولها في مدونات الأخلاق العربية الإسلامية عند الماوردي كنموذج.

وبداية يعرف العمران لغوياً كما جاء في (لسان العرب): العُمر: الحياة، وعمّرت الخراب أعمره وعمارة فهو عامر، أي معمور، وعمر الرجل ماله وبيته عمارة وعموراً، وعمراناً: لزمه، وفي التنزيل العزيز ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي أذن لكم في عمارتها، واستخراج قوتكم منها وجعلكم عمارها، والعمارة ما يعمر المكان¹. ويعرف العُمران اصطلاحاً عند ابن خلدون بأنه «التساكن في مِصْرٍ أو صلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم (الناس) من التعاون على المعاش»².

والدِّين (بالكسر) يعني: العادة والشأن، ودانه ديناً أي أذله واستعبده، والدين: الطاعة، يقال دان له يدين ديناً، إذا انقاد وأطاع، وقوم دين أي مطيعون منقادون، والدين والدين يعني العادة.

- 2 -

1/2 - يمكن تحليل كتب الأخلاق الفلسفية عند الفارابي، وابن مسكويه، والعامري باعتبار أن الجذع الفلسفي هو الرابط المشترك بينهم، وأن مدونات هؤلاء الفلاسفة ذات أصول أفلاطونية وأرسطية، وأن تفسيراتهم في تلك المدونات تعتمد على العقل أولاً، وأن اهتمامهم بالعمران، وعلاقته بالدين جاء من خلال أهداف أخلاقية، وتجمع مدونات هؤلاء الفلاسفة على أن الهدف من

1- ابن منظور: لسان العرب مادة (عمر) نسخة إلكترونية من موقع الباحث الإلكتروني.

2- الجابري: العصبية والدولة، ص 143.

العمران البشري هو تحقيق السعادة و«الكمال»؛ إذ إن جميع الكمالات ليس يمكن أن يبلغها (الإنسان) وحده من دون معاونة ناس كثيرين له، وإن فطرة كل إنسان أن يكون مرتبطاً - فيما ينبغي أن يسعى له - بإنسان، أو أناس غيره، وكل إنسان من الناس بهذه الحالة، وإنه كذلك يحتاج كل إنسان فيما له أن يبلغ من هذا الكمال إلى مجاورة ناس آخرين واجتماعه معهم¹ ومن ثم فإن حديث الفارابي عن الحاجة إلى الاجتماع هي وسيلة لا غاية؛ وسيلة لتحقيق غرض أخلاقي وهو الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة، ولهذا فإن الفارابي «جعل الأخلاق مقدمة للسياسة المدنية أو بالأحرى المدينة الفاضلة»².

**بداية يعرف العمران
لغويًا كما جاء في (لسان
العرب): العُمَر: الحياة،
وعمرت الخراب أعمره
وعمارة فهو عامر، أي
معمور، وعمر الرجل ماله
وبيته عمارة وعموراً،
وعمراناً: لزمه.**

ورأى العامري أن هدف الاجتماع الإنساني هو الحاجة؛ وذلك أنه لا أحد يستطيع بلوغ حاجته بنفسه من دون الاستعانة بغيره، والغرض من ذلك هو تحقيق السعادة وصلاح الحال، وأن «الإسعاد هو تشويق السائس للمسوس إلى ما يسعد به، وذلك هو إجراء المسوس بالتدبير إلى الغرض الذي أقامته السنة السياسية، والغرض هو صلاح الحال لكل واحد من الناس بقدر ما يمكن فيه وفي وقته»³.

ويذهب ابن مسكويه - متأثراً بأراء أفلاطون - إلى أنه لا بد من التعاون بين أفراد المجتمع حتى تحصل لهم الخيرات سواء ما اتصل منها بالقوة المفكرة، أو بالقوة الغضبية، أو بالقوة الشهوية؛ لينعم المجتمع معاً، وتتم لهم السعادة⁴. وذلك لأن الإنسان مدني بالطبع، ولا يعيش وحده متوحداً

- 1- الفارابي، تحصيل السعادة، تحقيق جعفر آل ياسين، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983م، ص 61.
- 2- أحمد صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط 1983م، ص 13.
- 3- العامري، السعادة والإسعاد، تحقيق أحمد عبد الحليم عطيه، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص 230.
- 4- ناجي التكريتي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكرى الإسلام، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1982م، ص 348.

كما تعيش الطير والوحش؛ لأن تلك مكتفية بما خلق لها من الرياش، والهداية إلى مصالحها وأقواتها، والإنسان عارٍ لا طاقة له، ولا هداية إلى قوته ومصالحته إلا بالاجتماع، والتعاون، وهذا الاجتماع والتعاون هو المدنية¹. ويُرجع مسكويه نشأة العمران إلى الحاجة والمنفعة لأن «الواحد منهم عاجز عن تحصيل تمامه بنفسه»، فالحاجة صادقة، والضرورة داعية إلى جمع وتآلف بين أشتات الأشخاص ليصيروا بالاتفاق والاتلاف كالشخص الواحد: الذي تجمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له»².

ومن ثمّ فإن مدونات الأخلاق الفلسفية تضع هدفاً أخلاقياً لنشأة العمران البشري هو تحقيق السعادة والكمال للبشر؛ ولكنها تركز في الوقت نفسه على إشباع الحاجات الضرورية للاجتماع البشري، وتحقيق المنافع لمجموع أفرادها، ومن ثمّ فهذه المدونات سبقت ابن خلدون في القول بإشباع الحاجات البشرية، ولكن هدفها الأسمى كان تحقيق السعادة كقيمة أخلاقية للبشر، في حين أن هدف العمران البشري عند ابن خلدون هو «إشباع الحاجة من الغذاء؛ لعجز الإنسان عن تحصيل حاجاته من الغذاء بمفرده»³. فالناس في نظر الفارابي يتعاونون لكي يقيموا أود حياتهم أولاً، ولكي ينالوا الكمال الذي من أجله فطرت الطبيعة البشرية، أما ابن خلدون فلا يعترف بهذا الكمال المثالي الذي يقول به الفارابي، وفي رأيه أن البشر إنما يتعاونون لكي يحصلوا على القوت أولاً، ولكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم تجاه الحيوانات، وتجاه اعتداء الآخرين، ولهذا نجد أن الفارابي لا يعطي أهمية كبيرة للناحية المادية من حياة الناس، ولعله يعدها الوسيلة للوصول بالناس إلى الناحية المعنوية، وهي الكمال المطلق الذي تتم به السعادة، والسعادة في نظر الفارابي في استخدام القوى العاقلة التي لا تنال إلا بإعمال الروية والفكر، أما ابن خلدون فيجعل الناحية المادية أهم من

1- ابن مسكويه، والتوحيد، الهوامل والشوامل، ص 236.

2- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه وشرح غريبه، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، دون تاريخ، ص 149.

3- ابن خلدون المقدمة، ج 1، ص 340.

الناحية المعنوية في الاجتماع البشري، وهو يعدّ السعادة التي تنشأ من توافر الناحية المادية أعظم من تلك التي تنشأ عن انغماس الإنسان في التفكير المجرد، ويعلن ابن خلدون صراحة أن بعض السوقة وأصحاب التفكير العملي قد يكونون أوفر رزقاً وأكثر سعادة من أهل المعرفة والمنطق¹، ويؤكد علي الوردي أن ابن خلدون اطلع على (المدينة الفاضلة) عند الفارابي، وتأثر بكلامه عن حاجة الإنسان إلى العمران لإشباع حاجاته، وتحقيق الكمال.

إن الفارابي لا يعطي أهمية كبيرة للناحية المادية من حياة الناس، ولعله يعدها الوسيلة للوصول بالناس إلى الناحية المعنوية، وهي الكمال المطلق الذي تتم به السعادة

2/2 - واهتمت تلك المدونات بالروابط الأخلاقية التي تربط بين الأفراد في المجتمع، حيث ركز كلٌّ من العامري ومسكويه على أهمية ترسيخ الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع كرابطة قوية لحدوث الاستقرار والترابط للعمران البشري، وينقل العامري كلاماً عن أفلاطون «بأن الواجب على الملك أن يصرف عنايته إلى إيقاع الألفة والموافقة فيما بين أهل المدينة، فإن كل مدينة لا محبة بين أهلها ولا وفاق؛ فإنه لا نور فيها ولا نظام ولا ثبات لها ولا قوام، وأقوى أسباب الألفة: المعاشرة، ومن المعاشرة: الاجتماع على طعام، وعلى المنادمة. والسبب الثاني: المناكحة في طلب النسل والأولاد. والسبب الثالث: البر والملاطفة².

ويبرز العامري أهمية قيمة البر في ترابط الأفراد، ويسميها البذل والعطاء للآخرين، وهو أيضاً مما يعضد الترابط، «فالواجب أن يضع في نفس كل واحد من أهل المدينة أنه ليس لأحد أن يقصر عنايته أو ماله على أهله وولده؛ بل الواجب أن يكون ما في يد كل واحد هو للآخر متى احتاج إليه في نفسه أو أهله أو ولده أهلاً، للآخر حتى يجبر خلتهم وفاقتهم،

1- علي الوردي، منطق ابن خلدون، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط4، 1994.

2- العامري، السعادة والإسعاد، ص273.

ويقوم بأودهم، ويهتم بشأنهم، ويجب أن يشترك أهل المدينة في الأمور الاضطرارية، وفي الأمور النافعة؛ حتى يصيروا كبدن واحد، فإن تألم الواحد منهم تألم الآخر»¹.

وفي المقابل يكشف العامري عن أسباب الفرقة والاختلاف المضعفة لبنية العمران في المدينة، ويرى أنها كامنة في الاختلاف «في المذاهب والمجادلة، والمكاثرة بالمال، والمفاخرة، والعصبية من جهة تفضل الحال والرجال»². ويلاحظ أن العامري يتكلم بشكل مغاير لابن خلدون في بيان سلبيات الدين والعصبية في تفكيك بنیان العمران، وذلك في انتشار المذاهب الدينية، والتقادم العصبي الذي يؤسس للفرقة؛ ولكنه يبين أن اتباع السنّة والشريعة رابطة قوية بين الأفراد، ويذهب إلى أن الحل في منع وقوع الاختلاف في المذاهب «ألا يترك الناس بأن يزولوا عن ظاهر السنّة بنوع من التأويل، وأن يجعل على كل من تأول وتأويلاً مستكراً نوعاً من العقوبة، فإن لم يرتدع نفاه من البلد قبل أن يفسد غيره، وإن لم يرّ نفيه حبسه»³.

ويؤكد مسكويه على أن المحبة هي أساس المجتمع البشري؛ لأن نظام الموجودات كلها وصلاح أحوالها معلق بالمحبة ويرى أن المحبة ناتجة عن ميل الإنسان إلى الأُنس، وذلك «لأن الإنسان أنس بالطبع، وليس بوحشي، ولا نفور، وينبغي أن يعلم أن هذا الأُنس الطبيعي في الإنسان هو الذي ينبغي أن نحرص عليه، ونكتسبه مع أبناء جنسنا حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا فإنه مبدأ المحبات كلها»⁴.

ويوضح مسكويه الدور الإيجابي للدين والشريعة في إرساء دعائم المحبة والأُنس بين الأفراد، وأنه وضع للناس بالشريعة، وبالعادة الجميلة، واتخاذ الدعوات، والاجتماع في المآدب ليحصل لهم هذا الأُنس، والشريعة

1- المرجع السابق، ص 273.

2- المرجع السابق، ص 273-274.

3- المرجع السابق نفسه، ص 273-274.

4- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 153.

أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات، ليحصل لهم الأُنس الطبيعي، كما أوجبت على أهل المدينة أن يجتمعوا بأسرهم في كل أسبوع يوماً بعينه في مسجد يسعهم (صلاة الجمعة)؛ ليجتمع شمل أهل المحال والسكك كل أسبوع، ثم أوجب أيضاً أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرساتيق (القرى الصغيرة) المتقاربين في السنة مرتين في مصلى - صلاة الأعياد - بارزين، ويتجدد الأُنس بين كافتهم، وتشملهم المحبة الناظمة، ثم أوجب أن يجتمعوا في العمر كله مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة - الحج - ولم يعين من العمر وقتاً مخصوصاً ليتسع لهم

يلاحظ أن العامري يتكلم بشكل مغاير لابن خلدون في بيان سلبيات الدين والعصبية في تفكيك بنيان العمران، وذلك في انتشار المذاهب الدينية، والتقادح العصبي الذي يؤسس للفرقة

الزمان، فيجتمعون بذلك إلى الأُنس الطبيعي وإلى الخيرات المشتركة، وتتجدد بينهم محبة الشريعة، وليكبروا الله على ما هداهم¹. ومن ثم فإن على رئيس المدينة ومدبرها أن يعمل على إيقاع المودة والمحبة بين أهلها، ولكن هذا مشروط عند مسكويه بالعقل والدين، فيقول: «وهذا التآحد المطلوب بهذه المحبة المرغوب فيها لا يتم إلا بالأراء الصحيحة التي يرجى الاتفاق من العقول السليمة عليها، والاعتقادات القوية التي لا تحصل إلا بالديانات التي يقصد بها وجه الله عز وجل»².

3/2 - وإذا كان ابن خلدون يعتقد أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجوده، وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، فالدولة من دون العمران لا تتصور، والعمران من دون الدولة والملك متعذر³، ولذا عني فلاسفة الأخلاق بالحديث عن دولة المدينة، وكيفية تأسيسها باعتبارها حافظة للعمران، ومحققة لأهداف السعادة.

1- المرجع السابق، ص 154.

2- المرجع السابق، ص 145.

3- الجابري، العصبية والدولة، ص 109.

فربط الفارابي في (مدينته الفاضلة) البعد الديني بالبعد السياسي والأخلاقي في قيام العمران فيها، وفي كتابه (المدينة الفاضلة)، كتب الفارابي خمسة وعشرين فصلاً حول الله وصفاته، وصدور الكائنات عنه، ومراتب الوجود، والنفس الإنسانية، والوحي والمنامات، وهي مفاهيم مؤسّسة لبناء المدينة الفاضلة توضح لنا دور الدين في بناء هذه المدينة، وأنه القاعدة الأساسية لها، وفي الفصل السادس والعشرين، يقرُّ بأن السعادة والكمال هدف التجمعات البشرية، والتجمعات البشرية منها الكاملة، ومنها غير الكاملة، فالكاملة ثلاثة عظمى: وهي اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة، ووسطى: وهي اجتماع الأمة في جزء من المعمورة، وصغرى: وهي اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة، وغير الكاملة وهي اجتماع القرية، والمحلة، والسكة، والمنزل. ويرى الفارابي أن «الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة لا باجتماع هو أنقص منها... فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة، والأمة التي تتعاون مدنها على ما تنال من السعادة هي الأمة الفاضلة، وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها تتعاون على بلوغ السعادة»¹.

ولما كان تحقيق السعادة هو الهدف المنوط بمدينة الفارابي فإن العامري يقسم المدن وفقاً للمعيار القيمي الأخلاقي، فهو يهتم بالعمران باعتباره ما ينبغي أن يكون عليه التجمع البشري، وينقل كلام أفلاطون في أنواع المدن فيقول: «المدينة الفاضلة وهي التي يكون الغلبة فيها لأهل الفضيلة، ومنها المدن الخسيسة، وهي التي تكون الغلبة فيها للمنتفعين باللذات البهيمية من المأكل والمشرب والمناخ، ومنها المدينة الحكيمة، وهي التي تكون الغلبة فيها لأهل الحكمة، ومنها المدينة الجاهلة، وهي التي لم يعرف أهلها كبير شيء من العلوم الفاضلة»².

1- الفارابي، المدينة الفاضلة، ص 124.

2- العامري، السعادة والإسعاد، ص 287.

وتحدّث ابن مسكويه عن أنواع المدنية والعمران ورأى أن المدنية منها العمارة ومنها الخراب و«مدنية العمارة تتم بكثرة الأعوان، وانتشار العدل بينهم بقوة السلطان الذي ينظم أحوالهم، ويحفظ مراتبهم، ويرفع الفوائل عنهم، وأعني بكثرة الأعوان تعاون الأيدي والنيات بالأعمال الكثيرة التي بعضها ضرورية في قوام العيش، وبعضها نافعة في حسن الحال في العيش، وبعضها نافعة في تزيين العيش، وأما إن فات المدنية واحدة من هذه الثلاثة فإنها خراب، فإن فاتها الاثنتان - أعني حسن الحال والزينة جميعاً - فهي غاية في الخراب؛ وذلك أن الأشياء الضرورية في قوام العيش إنما يتبلغ بها الزهاد الذين لا يعمرّون الدنيا وليسوا في عدد العمران»¹.

**يبيرر العامري الحاجة
إلى الرياسة بأن أكثر
الناس يعترفون بالواجب
ولا ينقادون له طوعاً**

4/2 - ولأن شخصية الملك الرئيس هي الشخصية المركزية في دولة المدينة كانت العناية بكيفية صناعتها، وتحديد مهماتها؛ لأنه أشرف عضو في المدينة، والأعضاء القريبة منه تتوزع بحسب درجات الشرف، ويشترط الفارابي في الرياسة أن تحصل لمن فُطر بالطبع فعلاً لها، وأن تكون صناعته (الحكم) أشرف الصناعات،

وشروطه: أن يكون تام الأعضاء، جيد الفهم والتصور، جيد الحفظ، جيد الفطنة، حسن العبارة، محباً للعلم، غير شره على المأكول والمنكوح، كبير النفس، وأن يكون الدرهم والدينار وسائر أغراض الدنيا هيّئة عنده، وأن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله، ومبغضاً للجور والظلم، قوي العزيمة، حافظ للشرائع، وله جودة الاستنباط، وجودة الرؤية، وأن يكون له ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب². ويبيرر العامري الحاجة إلى الرياسة بأن أكثر الناس يعترفون بالواجب ولا ينقادون له طوعاً، فاحتيج بسبب ذلك إلى سائس ضرورة ليسوس من لا ينقاد للواجب بالرفق والطوع بالعنف والإكراه³.

1- ابن مسكويه، التوحيد، الهوامل والشوامل، ص 236 - 237.

2- الفارابي، المدينة الفاضلة، ص 127 - 130.

3- العامري، السعادة والإسعاد، ص 237.



ورأى الفارابي أن الصفات السالفة إن لم تتحقق في واحد يمكن أن يكون الرئيس أكثر من واحد، وهذا ما رفضه العامري في قوله بأن ما ذهب إليه الفارابي «لا معنى له، وليس يجوز أن يكون الرأس أكثر من واحد، وإنما الرياسة بالرأي فمن لا رأي له لا يستحق الرئاسة»¹.

وقد استخدم العامري وابن مسكويه الموروثات الفارسية في وصف الملك، وأن نسبة الملك إلى الرعية نسبة أبوية، أو أن الملك بالنسبة للرعية كنسبة الرأس للجسد في قدرته على الإصلاح والتغيير في المجتمع، فمن دوره «أن يحمل أهل المدينة على الألفة، وأن يمنعهم من الشتات والفرقة، والسبيل إلى الألفة حسن المعاملة، وحسن العشرة، وترك الحسد والمنافسة، وترك الخلاف والمنازعة»².

5/2 - ومن جانب آخر فحين تتداعى أواصر المحبة والألفة بين أفراد المجتمع الواحد لا بد من تفعيل العدالة حتى يعيد التوازن بين أفراد المجتمع البشري، فيقول مسكويه: «يوشك أن تكون المحبة بين الرئيس والمرؤوس والغني والفقير تعرض لها الملامة والتوبيخ لأجل اختلاف الأسباب، ولأن كل واحد ينتظر المكافأة عند الآخر ما لا يجده عنده، فيقع تقادح النيات بينهما، ثم استبطاء، ثم ملامات، ويزيل ذلك طلب العدالة، ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر، وبذل كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما»³.

وإذا كان الفارابي قد اشترط في الحاكم أن يكون عادلاً؛ فإن العامري قد جمع الأحاديث النبوية التي تحث على فضيلة العدالة والعدل عن الرسول؛ مثل: (أفضل عباد الله إمامٌ عادلٌ رقيقٌ، وشر عباد الله منزلة إمام جائرٌ أخرق)، وقول الرسول ﷺ: (المقسطون على منابر من نور يوم القيامة)، ويرى العامري أن أعظم أعمال الملوك العمارة والحراسة، و«الحراسة إنما تكون بالعقل، والعمارة إنما تكون بالعدل»⁴. ويؤكد

1- المرجع السابق، ص 242.

2- المرجع السابق، ص 248.

3- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 156 - 157.

4- العامري، السعادة والإسعاد، ص 250.

ابن مسكويه أن العدل ليس جزءاً من الفضيلة؛ بل الفضيلة كلها، وأن الجور ليس جزءاً من الرذيلة؛ بل الرذيلة كلها، وأنه «بالعدل المدني عمرت المدن، وبالجور المدني خربت المدن»¹، ويعضد مسكويه في قوله بأن الدين والشريعة الإسلامية دعماً للعدل وأصلها له.

ولما كان الأمن إحدى ضروريات ازدهار العمران البشري فلا بد للملك أن يحافظ على الأمن؛ وذلك لأن عدم الأمن يؤدي إلى اضطراب حالة العمران، وواجب على الملوك «الحماية والحراسة، والحماية إنما أن تكون من الأعداء المعاندين، والحراسة إنما تكون بكشف المفسدين،

وترهيب المتمردين»²، ومن ثم يرى مسكويه «أن الملك الفاضل إذا أمن السرب، وبسط العدل، وأوسع العمارة، وحمى الحریم، وذبت عن الحوزة، ودفع من التظالم، ووفر الناس على ما يختارونه من مصالحهم ومعايشهم؛ فقد أحسن إلى كل واحد من رعيته»³.

لما كان الأمن إحدى ضروريات ازدهار العمران البشري فلا بد للملك أن يحافظ على الأمن؛ وذلك لأن عدم الأمن يؤدي إلى اضطراب حالة العمران، وواجب على الملوك «الحماية والحراسة»

6/2 - وإذا كان الدين يسهم في إرساء دعائم المحبة والعدالة في المجتمع البشري، وفي بناء دولة المدينة فهل يقف دور الدين في

بناء العمران عند هذا الحد، نجد أن الفارابي يؤسس مدينته على الجوانب الإيمانية الميتافيزيقية، ورأى الفارابي «أن كل ما تعطيه الفلسفة معقولاً أو مقصوراً فإن الملة تعطيه متخيلاً، وكل ما تعطي الفلسفة فيه البراهين اليقينية فإن الملة تعطي فيه الإقتاعات»⁴.

ويذهب العامري إلى أن أول ما يجب على الملوك إقامة الدين؛ لأن

1- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 127.

2- العامري، السعادة والإسعاد، ص 249 - 250.

3- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 132.

4- الفارابي، تحصيل السعادة، ص 90 - 91.

اللَّهُ خلق الملوك لتنفيذ مشيئته، فيقول: «وأول ما يجب على الملوك إقامة الدين وتحقيقه، والعمل بنفسه، ويأخذ الرعية بإقامته؛ فإن الخير كله إنما هو في طاعة الله ﷻ، وقال أنوشروان: إن قوام الملك إنما هو بالدين فإن ضعف الدين ضعف الملك»¹ ومن ثم يسهم الدين في توحيد المجتمع البشري، كما أن إقرار الطاعة لإله واحد يسهم في توحيد مجموع أفراد المجتمع البشري.

ويرى مسكويه أن الخليفة هو الذي يحرس الدين - بالتعبير الفارسي القديم - ومن ثمَّ «فإن القائم بحفظ السنة وغيرها من وظائف الشرع حتى لا تزول عن أوضاعها هو الإمام، وصناعته هي صناعة الملك، والأوائل لا يسمون بالملك إلا من حرس الدين، وقام بحفظ مراتبه وأوامره وزواجه، وأما من أعرض عن ذلك فيسمونه متغلباً، ولا يؤهل لاسم الملك؛ وذلك أن الدين هو وضع إلهي يسوق الناس باختيارهم إلى السعادة القصوى، والملك هو حارس هذا الوضع الإلهي»². ولهذا فإن عدم اتباع حدود الدين يؤدي إلى تفكك أركان المجتمع؛ لأن الملك إذا تخلى عن مسؤوليته «تتبدل أوضاع الدين، ويجد الناس رخصة في شهواتهم، ويكثر من يساعدهم على ذلك، فتقلب هيئة السعادة إلى ضدها، ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض، فأداهم ذلك إلى الشتات والفرقة، وانتقض النظام الذي طلبه صاحب الشرع بالأوضاع الإلهية»³.

ومن ثمَّ فإن مدونات الأخلاق تبرز دور الدين في المجتمع على أنه يسهم في إقرار النظام والوحدة بين أفراد المجتمع، وتقوية أركان الملك والعمران معاً، وهذا أكده ابن خلدون بأن «الدين شيد السياسة بالسرعة وأحكامها الراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، كما أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرّد الوجهة إلى الحق،

1- العامري، السعادة والإسعاد، ص 249.

2- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 154.

3- المرجع السابق، ص 105.

فإذا حصل لهم الاستبصار من أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه¹.

7/2 - ويرى ابن مسكويه أن الترف وفنونه يؤدي إلى ازدهار العمران، وأن عمارة الأرض لا تتعلق بالعيش فقط؛ ولكن بجودة العيش وحسن حاله، ويرى أن هذه الأمور لا تتم إلا بالمخاطرات الكثيرة، وركوب الأهوال واحتمال المشاق، والتعرض للمخاوف، ولو تبلى الناس بضروراتهم، وطرحوا فضول العيش، وعملوا بما يقتضيه مجرى العمل لصاروا كلهم زهاداً، ولو كانوا كذلك لبطل هذا النظام الحسن والزين في العالم، وعاشوا عيشة قشفة كعيشة أهل القرى الضعيفة القليلة العدد، أو كعيشة سكان الخيم، وبيوت الشَّعر، وأطلال القصب، وهذه هي الحال التي تسمى خراب المدن².

إن مدونات الأخلاق تبرز دور الدين في المجتمع على أنه يسهم في إقرار النظام والوحدة بين أفراد المجتمع، وتقوية أركان الملك والعمران معاً

8/2 - وي طرح مسكويه طرق عمارة الدنيا التامة، ويرى أنها ثلاثة أشياء هي أجناس عالية، ثم تنقسم إلى أنواع كثيرة؛ أولها: إثارة الأرض وفلاحتها بالزراع والغرس، والقيام عليها بما يصلحها، ويستعد لما يراد منها، أعني الآلات المستخرجة من المعادن كالحجارة والحديد المستعملة في إثارة الحرث والطحن، وإساحة الماء على وجه الأرض من العيون والأنهار.

والثاني: آلات الجند والأسلحة المستعملة لهم في ذب الأعداء عن أولئك الذين وصفناهم؛ ليتم لجماعتهم العيش، ويقام غرض فيما اجتمعوا له بالمعونة، وللجند أيضاً صنّاع وأصحاب (حرف) فهم يعدون لهم الخيل، وسائر الأسلحة للدفع والذب.

الثالث: الجلب والتجهيز الذي يتم بنقل ما يعز في الأرض إلى أرض،

1- ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 518.

2- ابن مسكويه، والتوحيدي، الهوامل والشوامل، ص 237.

وما يكون في بحر إلى بر، وهذه الأحوال الثلاثة زين وجمال يزيد في حسن أحوالها، ولها أصحاب يختصون بجزء من أقسام الأحوال الثلاثة¹.

- 3 -

1/3 - وإذا انتقلنا إلى نمط آخر من الكتابة الأخلاقية، فنجد نموذج الكتابة الأخلاقية العربية الإسلامية واضحة في كتاب الماوردي (+450هـ) (أدب الدنيا والدين) (الذي يعوّل فيه على المورث العربي القديم، والموروث الديني الإسلامي من الكتاب والسنة، ويتميز الكتاب في خصائصه عن معظم كتب الماوردي في «مرايا الأمراء» التي اجترت الأصول الفارسية في التدبير السياسي).

ويُعنى الماوردي في كتابه السالف عناية كبرى بمسألة العمران البشري، ودور الدين في صياغته وتكوينه، فيرى أن الله البالغ قدرته وحكمته «قد خلق الخلق بتدبيره، وفطرهم بتقديره، فكان من لطيف ما دبر، وبديع ما قدر أن خلقهم محتاجين، وفطرهم عاجزين؛ ليكون بالغنى متفرداً، وبالقدرة مختصاً، حتى يشعروا بقدرته أنه خالق، ويعلمنا بغناه أنه رازق، فنذعن بطاعته رغبة ورهبة»². فالماوردي يظهر مدى حاجة الإنسان ارتباطاً بقدرة الله المطلقة، ويفسر ذلك في ضوء الآيات القرآنية «فإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانتة صفة لازمة لطبعه، وخلقة قائمة في جوهره، ولذلك قال تعالى: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. وإنما خص الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة، وظهور العجز نعمة عليه، ولطفاً به، ليكون ذل الحاجة، ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى، وبغي القدرة؛ لأن الطغيان مركوز في طبعه إذا استغنى، والبغي مستول عليه إذا قدر، وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ ﴿١﴾﴾»³.

1- المرجع السابق نفسه.

2- الماوردي (أبو الحسن)، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2004، ص 116.

3- المرجع السابق نفسه.

وإذا كان الماوردي يربط كون الإنسان مدنياً بطبعه بالرجوع إلى خالقه وهو الله تعالى؛ ليكون الاحتياج علامة على إقرار الربوبية، ويكون فقره دليلاً على احتياجه للغنى - سبحانه - فإنه ينظر إلى العمران البشري والدنيا في ضوء علاقتها بالآخرة، وأن الله قد جعل احتياج الإنسان وعجزه في الدنيا كدار تكليف مرتبطاً بالآخرة كدار للجزاء؛ فلزم لذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته؛ لأنه لا غنى له عن التزود منها لآخرفته، ولأنه لا بد من سد الخلة فيها عند حاجته... وفي هذا المعنى قال الرسول ﷺ: (ليس خيركم من ترك الدنيا

للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه)¹. ومن ثم فقد حث الكتاب والسنة على ضرورة الأخذ بنصيب من الدنيا، وذلك محفز للعمران البشري، والعمل في الدنيا، والأخذ بأسباب الحياة.

ويقرر الماوردي أن الحاجة إلى الاجتماع البشري سُنَّة ربانية مؤسسة على سُنَّة الاختلاف بين البشر في الغنى والفقر في قوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ وقوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، ويذهب الماوردي إلى أن «الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة؛ لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد، لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزاً، وأما إذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة»².

يظهر الماوردي مدى حاجة الإنسان ارتباطاً بقدرة الله المطلقة، ويفسر ذلك في ضوء الآيات القرآنية «فالإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانتته صفة لازمة لطبعه، وخلقته قائمة في جوهره».

1- المرجع السابق، ص 117 - 118.

2- المرجع السابق، ص 119.

وإذا كان الماوردي يكشف من خلال القرآن والسنة محفزات العمران، فإنه يرى أن صلاح العمران والدنيا فيه صلاح الدين كما أن فساد العمران والدنيا فيه فساد للدين، فيقول: «إن صلاح الدنيا يصلح سائر أهلها لوفور أماناتهم، وظهور ديانتهم، وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلّة أماناتهم، وضعف ديانتهم... وإنّ ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به نفعاً، كما أن ما به تضعف دياناتهم، وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به ضرراً»¹.

2/3 - ولما كان صلاح العمران مهماً للدنيا والدين، فإن الماوردي يبحث في أسباب صلاح المجتمع والعمران؛ حتى تصير أحواله منتظمة وأموره ملتزمة، وكذلك يبحث في أسباب صلاح حال الإنسان كحامل رئيس لنشر العمران، فيرى الماوردي أن ما تصلح به الدنيا قواعد أساسية: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح.

1 - الدين المتبع: يرى الماوردي أن الدين من أهم القواعد في صلاح الدنيا والعمران البشري، وهو وحده عليه صلاح الآخرة، وتكمن أهميته في أنه «يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهراً للسرائر، زاجراً للضمائر، رقيباً على النفوس في خلوتها، نصحاً لها في مللماتها، وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلح الناس إلا عليها»².

2 - سلطان قاهر: ونتيجة للاختلاف بين الناس وتنازعهم «وجب التفويض إلى إمرة سلطان مسترعى، ينقاد الناس لطاعته، ويتدبرون بسياسته؛ ليكون بالطاعة ماهراً، وبالسياسة مدبراً، وكان أولى الناس بالعبادة بما أسست به الممالك، ودبرت به الرعايا والمصالح؛ لأنه زمام

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق، ص 120.

يقود إلى الحق، ويستقيم به أود الخلق»¹، وهو سلطان قاهر تتألف برهبتة الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتكف بسطوته الأيدي المتغلبة. ويرى الماوردي أن رهبة السلطان أقوى من العقل والدين؛ لأنهما ربما كانا مضعوفين، أو بداعي الهوى مغلوبين. ويعدد الماوردي الأحاديث النبوية حول أهمية السلطان العادل: «إن الله يزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن»، ولهذا فعلى الملك أن يكون سلطانه جارياً على سنن الدين.

ويلزم سلطان الأمة في وظيفته وظائف جملة ترتبط بالدين وأهمها:

1- حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به.

2- حراسة البيضة، والذب عن الأمة من عدو في الدين أو باغي نفس أو مال.

3- عمارة البلدان باعتماد مصالحها، وتهذيب سبلها ومسالكها.

4- تقدير ما يتولاه من أموال بسنن الدين من غير تحريف في أخذها وإعطائها.

5- معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها، واعتماد المنصفة في فصلها.

6- إقامة الحدود على مستحقيها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها.

7- اختيار خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها، والأمانة عليها»².

3 - عدل شامل: وبناءً على العدل يكون سلامة السلطان وعمارة البلدان، كما أن العدل الشامل «يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، ويعمر به

ولما كان صلاح العمران مهماً للدنيا والدين، فإن الماوردي يبحث في أسباب صلاح المجتمع والعمران؛ حتى تصير أحواله منتظمة وأموره ملتزمة

1- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر، تحقيق رضوان السيد، دار العلوم، بيروت، ط1، 1987، ص97.

2- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص123.

البلاد، وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان... وليس أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية»¹.

4 - الأمان: ويبرز الماوردي أهمية الأمان بالنسبة للعمران البشري؛ لأنه يسهم في ازدهار العمران، وهو أهم وظائف السلطان؛ أن يكون هناك «أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة... لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفيهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم، ولئن كان الأمان من نتائج العدل، فالجور من نتائج ما ليس بعدل»².

5 - خصب دار: ويعني به الماوردي رفعة العيش وسعته، وهو ما يؤدي إلى أن «تتسع النفوس به في الأحوال، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال، فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصالح الدنيا، وانتظام أحوالها، ولأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والسخاء»³. ولا شك أن الخصب ناتج عن تطبيق الحاكم أو السلطان لقيمة العدل.

6 - أمل فسيح: وهنا يعتقد الماوردي أن الأمل هو أساس العمران لقول النبي ﷺ: (الأمل رحمة من الله لأمتي، ولولاه ما غرس غارس شجراً ولا أرضعت أم ولداً)، ومن ثم فإن «الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر على استيعابه، ويبعث على اقتناء ما ليس يُؤمل دركه بحياة، فذلك ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال، حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها، وصارت تنتقل بعمرانها من قرن إلى قرن، ولو

1- المرجع السابق، ص 125.

2- المرجع السابق، ص 128.

3- المرجع السابق، ص 129.

قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته، وكانت تنتقل إلى من بعده خراباً¹.

3/3 - وناقش الماوردي بعد صلاح حال الدنيا، صلاح حال الإنسان، ورأى أنها ثلاثة أشياء: نفس مطيعة، وألفة جامعة، ومادة كافية. ويصنيفها رضوان السيد بقوله: إن «الماوردي يرى أن أي مجموعة بشرية تملك حظاً ما من الوجود والاستمرار لا بد أن تتوافر لها ثلاثة عناصر: العنصر الفيزيقي (الفرد)، والعنصر الأنثروبولوجي (الروابط الدموية) بين الأفراد، والعنصر المادي والاقتصادي (الوسائل الضرورية للعيش)².

إن «الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر على استيعابه، ويبعث على اقتناء ما ليس يُؤمل دركه بحياة، فلذلك ما أرقق الله تعالى خلقه باتساع الآمال، حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها.

1 - النفس المطيعة: ويسمىها الماوردي كذلك؛ «لأنها إذا أطاعته ملكها، وإذا عصته ملكته، وطاعة الإنسان تكون من وجهتين، إحداهما: النصح، والثانية: الانقياد، فأما النصح فهو أن ينظر الإنسان إلى الأمور بحقائقها، فيرى الرشد رشداً ويستحسنه، ويرى الغي غياً ويستقبحه»³.

2 - الألفة الجامعة: وتشكل القاعدة الثانية من قواعد حال الإنسان أو الاجتماع البشري،

ويرى الماوردي «أن الألفة ليست فطرة في الإنسان، بل هي الدليل الأوقع الذي يحدد سمو إنسانيته، فالمؤمن كما يقول النبي ﷺ إلف مألوف، ثم يحدد أسباب الألفة بخمسة: الدين، والنسب والمصاهرة، والمودة، والبر»⁴.

أ - الدين: ينظر الماوردي للدين على أنه أول أسباب الألفة؛ ولكنه يرى أيضاً أنه قد يتحول إلى أحد أسباب الفرقة والاختلاف، فيقول بأن

1- المرجع السابق، ص 130 - 131.

2- رضوان السيد، مقدمته لكتاب لتسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، ص 10.

3- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 132.

4- المرجع السابق، ص 133 ورضوان السيد، مقدمة تسهيل النظر، ص 11.

الدين «يبعث على التناصر، ويمنع من التقاطع والتبادر، وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة، فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثلما يحدث بين المختلفين في الأديان، وعلّة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه، لما كان أقوى أسباب الألفة، كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة، وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة، ولم يكن أحد الفريقين أعلى يداً، وأكثر عدداً، كانت العداوة بينهم أقوى، والإحن فيهم أعظم؛ لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف تحاسد الأكفاء، وتنافس النظراء»¹.

ب - النسب: وثاني أسباب الألفة هو النسب، وما الأنساب إلا والد أو مولود، أو من يربطه نسب بالآخر، وهذه الروابط تبعث على الألفة؛ لأن تعاطف الأرحام، وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفرقة، أنفة في استعلاء الأبعد على الأقارب، وتوقياً من تسلط الغرباء الأجانب، وقد روي عن النبي ﷺ: (إن الرحم إن تماست تعاطفت)². ويذهب رضوان السيد إلى أن «النسب قد تعرض له عوارض تمنع الألفة، وتبعث على الفرقة المنافية لها، ولهذا فإنه يرى أن العشيرة إذا كانت تكوّن نواة الاجتماع الطبيعي؛ فإنها تعجز عن الوصول إلى مرحلة (الاجتماع المدني) بسبب هذه العصبية النافية والطاردة، فلا بد من عامل إضافي يغيثها ويفتحها على آفاق أوسع وهو الدين في نظر الماوردي الذي يجعله قاعدة تأسيسية، ثم يعود فيضعه في المجال الاجتماعي ضمن سبب البر»³.

ج - المصاهرة: وهي السبب الثالث للألفة، ويستشهد الماوردي بالآية الكريمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ويقول بأنه «لم تزل العرب تجتذب البُعْدَاء، وتتألف الأعداء بالمصاهرة، حتى يرجع النافر مؤانساً، ويصير

1- المرجع السابق، ص 133 - 134.

2- المرجع السابق، ص 134.

3- رضوان السيد، مقدمة لتسهيل النظر، ص 12 - 13.

العدو موالياً، وقد يصير بالمصاهرة بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالة بين العشيرتين»¹.

د - المودة: وهي السبب الرابع من أسباب الألفة، ولأنها تكسب معادن الميل إخلاصاً ومصافة، وتحدث بخلوص المصافة وفاء ومحاماة، وهذا أعلى مراتب الألفة، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه لتزيد ألفتهم، ويقوى تضافرهم وتناصرهم².

ثاني أسباب الألفة هو النسب، وما الأنساب إلا والد أو مولود، أو من يربطه نسب بالآخر، وهذه الروابط تبعث على الألفة؛ لأن تعاطف الأرحام، وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة.

هـ - البر: وهو السبب الخامس للألفة، والبر مفهوم لا يستند إلى نسب أو شبه نسب، كما أنه لا يتصل بالضرورة بالمودة والصداقة، إنه عمل اجتماعي بحت تابع من وعي بالضرورة، ومن وازع ذي أساس ديني³. ويرى الماوردي أن البر يوصل إلى القلوب أطفافاً، ويثبثها محبة وانعطافاً، ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به، وقرنه بالتقوى له، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته⁴.

ويرى الماوردي «أن البر نوعان: صلة ومعروف، فأما الصلة: فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب، وهذا تبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها، ويمنع منه شحها وإباؤها⁵، وأما المعروف فيتنوع نوعين قولاً وعملاً، فأما القول فهو طيب الكلام، وحسن البشر، والتودد بجميل القول، وهذا يبعث عليه حسن الخلق، ورقة الطبع، ويجب

1- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 139.

2- المرجع السابق، ص 146.

3- رضوان السيد، مقدمة لتسهيل النظر، ص 17.

4- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 168.

5- المرجع السابق نفسه.

أن يكون محدوداً كالسخاء فإنه إن أسرف فيه كان خلقاً مذموماً، وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس، والمعونة في النائبة، وهذا يبعث عليه حب الخير للناس، وإيثار الصلاح لهم¹. ولقد كان الماوردي حريصاً في شرحه لمعنى البر على بيان جذوره الإسلامية، ومدى حث الدين الإسلامي على البرِّ بالآخرين.

ويعلي رضوان السيد - في قراءته للماوردي - من شأن الدين على بقية عناصر الألفة الأخرى، ويرى أنه قد يكون عامل انقسام وتشردم، وليس عامل اتساق وانتظام في الاجتماع البشري، وأن النفس قد لا تطيع الإنسان لثنائية النقل والهوى، وأن قوانين الألفة الجامعة ليست ضد الشردمة والانقسام، بل معادلة للعيش معهما، فرابطة النسب ليس سببها الدم والقرباة فقط؛ بل مواجهة الآخر النقيض، وقد يطرأ عليها عارض يبعث على العقوق والقطيعة، وقد ينحل ما يمكن أن تؤدي إليه المصاهرة وتصير الوصلة فرقة، والألفة عداوة، فالعلاقات والروابط والعرى على اختلاف أنواعها هي وسائل «الاجتماع» للدفاع عن استقراره واستمراره، ومن ثمَّ فإن الانتظام والتناثر، والألفة والطرْد، والالتقاء والافتراق في الاجتماع البشري تجد اتساقها، والناظم لها ليس من ضمن مقولة التوازن بينها وبين عناصرها، بل من خارج ناظم ومنسق لا يملك إزالة النقائص؛ لكنه يملك إشاعة اتساق معين تسوده جدلية معقدة لا تمنع الحركية والمور: إنه الدين².

3 - المادة الكافية: وهي القاعدة الثالثة لصلاح حال الإنسان، ولقيام العمران عند الماوردي، وهي ما يتعلّق بما يحقق للإنسان أمور معاشه؛ لأن حاجات الإنسان المادية ضرورية «فإذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة، ولم يستقم له دين، وإذا تعذر شيء منها لحقه الوهن في نفسه، والاختلال في دنياه، بقدر ما تعذر من المادة

1- المرجع السابق، ص 184 - 185.

2- رضوان السيد، مقدمة لتسهيل النظر، ص 20 - 21.

عليه¹. وإن أسباب الحصول على المادة الكافية لأُمور المعاش متنوعة، وهي أربعة أوجه: فمأء زراعة، ونتاج حيوان، وربح تجارة، وكسب صناعة، فالزراعة هي مادة أهل الحضر، وسكان الأمصار والمدن، والاستمرار بها أعم نفعاً، وأوفى فرعاً. وأما الثاني وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام؛ لأنها لما لم تستقر بهم دار، ولم تضمهم أمصار، افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم فافتقروا الحيوان؛ لأنه يستقل في النقلة بنفسه، ويستغنى عن العلوقة برعيه، ثم هو مركوب ومحبوب. وأما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والإنتاج. والسبب الرابع وهو الصناعة: فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة، وقد تنقسم إلى صناعة فكر، وصناعة عمل، وصناعة مشتركة بين فكر وعمل².

- 4 -

وختاماً نجمل النتائج في النقاط التالية:

- يمكن القول: إن المدونات الأخلاقية الأخرى التي تحدثت عن العمران هي كتب (مرايا الأمراء) أو (نصائح الملوك)، وهي لم تخرج عن الروح العامة التي تناولناها لها في الصفحات السابقة، وإن كانت قد أعطت أهمية كبرى لكيفية صناعة الملك، ولكن حديث تلك الكتب عن العمران جاء كأجزاء متناثرة في ببيان الحديث عن التدبير السياسي.
- جاء تناول مدونات الأخلاق الإسلامية لمسألة العمران تناولاً قيمياً معيارياً، مختلفاً إلى حد ما عن تناول التاريخي لعلم العمران كما أسسه ابن خلدون، وذلك في تركيز تلك المدونات على أثر القيم الأخلاقية في صناعة العمران، والتي لم يعطها ابن خلدون أهمية كبيرة باستثناء حديثه عن أثر العدل والجور في العمران.

1- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 192.

2- المرجع السابق، ص 192 - 198 بتصرف.



- لم ترق معالجات مدونات الأخلاق الإسلامية لمسألة العمران إلى مصاف امكانية وجود نظرية متكاملة؛ ولكنها كانت معالجات جزئية اختلفت من فيلسوف لآخر، ولم تشكل نظرية كاملة الأركان كالتى أسسها ابن خلدون في مقدمته؛ ولكن لا شك أن ابن خلدون قد استفاد من معظم كتب الأخلاق، وكتب (مرايا الأمراء) في معالجته لنظريته في العمران، ولكنه عمق كل ذلك بمشاهداته واستقرائه للتاريخ، وأثر البيئة في العوائد والأخلاق.